

## الباب الثاني

### طورا وقائع الحروب الصليبية

## الفصل الأول

### الطور الأول من تاريخ الحروب الصليبية ( الاحتلال )

اهتمت غالبية الأبحاث الحديثة حول وقائع الحروب الصليبية بأسباب هذه الحروب خاصة من الجانب الأوربي ، وتأثر كل بحث بأحوال البلاد الذي صدر فيه وبالتيارات الفكرية لأيامه وبمدرسة التفسير التاريخي التي إليها انتمى صاحب البحث ، وكذلك بالانتماء السياسي والكذسي ، حيث هناك أبحاث كثيرة مثلت وجهة نظر الكنيسة الكاثوليكية ، وهناك ما مثل وجهة نظر الكنيسة الاورثوذكسية البيزنطية ، وطبعاً لا يمكن الحديث عن أبحاث واسعة الانتشار تمثل وجهة نظر العرب والمسلمين ، وكتابنا هذا إحدى المحاولات لعرض ما أسماه وجهة نظر عربية اسلامية .

لقد حاولت جل الدراسات الأوربية التقليل من العامل الديني وفعاليتيه والحت على الجوانب الاقتصادية والاجتماعية ووقفت مطولاً عند نظام الاقطاع وتأثيراته ، وفي الحقيقة تشكل محاولات التقليل من العامل الديني نوعاً من أنواع خداع الذات ، وسنرى في الجزء المقبل من موسوعتنا هذه مدى عمق وفعالية العامل الديني ، فمن غير المعقول أن تتخلى جموع من سكان أوربا تزيد على المليون مابين رجل وامرأة وشيخ وطفل عن حياتها ومواطنها وتأخذ الطريق الطويل الشاق نحو بلاد الشام لولا عمق المشاعر الدينية لدى هؤلاء الناس ، فالذي حرض هؤلاء وقادهم رجال الدين .

هذا ومواريث أوربا بشطريها الشرقي والغربي في شن حروب صليبية راسخة وواسعة ، فلقد عرضنا من قبل للحروب الصليبية التي شنّها شارلمان ضد السكسون فضلاً عن حروبه ضد مسلمي

الاندلس ، كما اتينا على الاشارة إلى صليبية القرن العاشر التي شنتها الامبراطورية البيزنطية ضد المسلمين في بلاد الشام وكريت ، يضاف إلى هذا إن الصراعات التي شهدتها ساحات اوربا الغربية مع الحروب بين البابوية والامبراطورية اخذت صبغة صليبية واضحة ، فلقد تسلحت البابوية بسلاح الدين واستخدمته ضد الاباطرة ليس لاثارة الانصار فحسب بل بفرض عقوبات الحرمان والطرده من الكنيسة ضد الاباطرة ، فالبابوية كان بإمكانها منع صكوك الغفران واصدار قرارات الحرمان ، والكنيسة هي التي فرضت هدنة الرب على امراء الاقطاع في اوربا ، ومن ثم وجهت طاقات هؤلاء الحربية لأعمال خارجية ، والكنيسة الكاثوليكية هي التي تبنت مابشر به اثنايسوس ثم عبادة الايقونات ومن تم اوجدت عقيدة الحج في المسيحية وروجت لها وابدعت طقوسها.

ونشطت حركة الحج نحو فلسطين في القرن الحادي عشر كثيرا ، كل ذلك برغم المعوقات الشديدة على الطريق الاوربية وفي بيزنطة ، وحيانا في ديار المسلمين ، وقبل هذا القرن نادرا ما اتت المصادر الاسلامية على ذكر قدوم حجاج غربيين ، لكنها فعلت ذلك في اخير هذا القرن ، فقد جاء عند العسظيمي في حوادث سنة ٤٨٦ هـ / ١٠٩٣ م : « ومنع اهل السواحل حجاج الفرنج الروم العبور إلى بيت المقدس ، وانتشر الخبر ممن سلم منهم إلى بلادهم بذلك ، فتأهبوا للغزاة ، واتصلت الاخبار الى السواحل وبلاد المسلمين كلها (١) »

ولا شك أن هذا الخبر يقدم أساسا جيدا لحكاية بطرس الناسك ، وقدمه حاجا الى فلسطين ثم نشاطه الدعوي في اوربا للحروب الصليبية ، وكان الحج يخضع لطقوس اوجبت على من رغب بالتوجه الى فلسطين أن يحصل على إذن من أسقف منطقتة ، فيتناول منه عصا الحج ومزودا ، وكانت العصا طويلة ، في وسطها عقدة وكذلك في اعلاها ليربط عليها شارة الصليب ، أما المزود فكان يعلق برباط ، وكان الحاج يزود بكتب توصية إلى الأديرة المسيحية التي

سيمر بها ، وكان اهل القرية يخرجون وهم يرتلون الأناشيد الدينية لتوديع الحجاج ، وفي كثير من الأحيان ، كان الحاج يبدأ رحلته حافي القدمين ، . مستوي في ذلك الغني والفقير ، وكان بعض الحجاج ينحدر إلى روما لياخذ عصاه مع التبريكات من البابا نفسه ، ثم يركب البحر حتى القسطنطينية وبعدها يسافر برا عبر اسية الصغرى ، وفيما بعد اعتاد الحجاج على ركوب الطرق البرية حتى القسطنطينية ومن ثم نحو القدس (٢) ، وهذا ما فعله الذين شاركوا في الحملات الصليبية ، لتوفر المعرفة بالطرق وطبيعتها ولقلة النفقات .

جميع القرائن تؤكد أن نفوس شعوب أوروبا الغربية خاصة في فرنسا وإيطاليا كانت مشبعة بالتمسك بالمسيحية والخضوع للبابوية ، وعلى الرغم من طبيعة المسيحية المسالمة بالأصل ، استطاعت البابوية تسويغ استخدام العنف ، وحين القى البابا أوربان الثاني خطابه في مجمع كليرمونت يوم ٢٧ تشرين الثاني سنة ١٠٩٥ م فجر كوامن النفوس فصرخ الجميع « إنها إرادة الرب » وحملوا شارات الصليب وأخذوا يعدون العدة للانطلاق نحو المشرق .

ولقد رويت كلمة البابا أوربان الثاني في أكثر من مصدر وفيما يلي فقرات رئيسة مما قاله حسب إحدى الروايات :

### أيها الأخوة الأحباء :

إنه في ظل الظروف الملحة ، قدمت أنا أوربان ، المتوج بمشيئة الرب بتاج التتليث ، الحبر الأعظم للعالم أجمع ، إليكم يا عباد الرب ، بمثابة رسول لأنبئكم بالأوامر الربانية .... عليكم وبكل سرعة أن تأخذوا المساعدات إلى اخوانكم في المشرق ، التسي طالما وعدتموهم بها ، إنهم بحاجة ملحة إليها ، إن العرب والتركمان قد حاربوهم ، وتوغلوا في الأراضي الرومانية ( البيزنطية ) عميقا حتى اليوسفور ، وهم يتوغلون الآن أعمق من ذي قبل في أراضي هؤلاء المسيحيين ، لقد أبادوهم سبع مرات في المعركة ، فقتلوا منهم من

قتلوا ، واخذوا عددا كبيرا من الاسرى ، ودمروا الكنائس ، واجتاحوا اراضي المملكة ، واذا لم تتصدوا لهم الآن ، فإنهم سيمدون سلطانهم اعمق وسيبشرونه فوق العبيد المخلصين للرب . لهذا السبب اتوجه إليكم بالرجاء والتحريض - وانه ليس انا الذي اتوجه إليكم ويحرضكم ، بل الرب على لساني انا نائب المسيح - اتوجه إلى الفقير منكم والغني واسألكم ان تتسارعوا نحو طرد ابناء الشر هؤلاء من المناطق المقطونة من قبل اخواننا ، وان تقدموا المساعدة في وقتها المناسب إلى عباد المسيح ، إنني أخاطب جميع هؤلاء الحضور ، واعلن الشيء نفسه إلى جميع الغياب ، لكن اعلموا ان المسيح هو الذي يخاطبكم ويصدر الأوامر .

إن جميع الذين يذهبون ويفقدون حياتهم في البر او البحر اثناء الرحلة او خلال المعركة ضد الكفار ، سيتم غفران ذنوبهم بالحال ، وإنني امنح هذا من خلال السلطة المضافة علي من قبل الرب .

إنه يتوجب على هؤلاء الذين اعتادوا - حتى الان - على الاقتتال ، مقترفين للاثم ، منغمسين في صراع ضد المؤمنين ان يتوجهوا للكفاح ضد الكفار ، وان يحققوا النصر عليهم في حرب كان من المتوجب مباشرتها منذ امد طويل .....

إنهضوا وادبروا اسلحتكم التي تستعملونها ضد اخوانكم ووجهوها ضد اعدائكم ، اعداء المسيحية ، إنكم تظلمون الأيتام والارامل ، وانتم تتورطون في القتل والاعتصاب ، وتنهبون الشعب في الطرق العامة ، وتقبلون الرشاوى لقتل اخوانكم المسيحيين وتريقون دماءهم ، دونما خوف او وجل او خجل ، فأنتم كالطيور الجوارح ، اكلة الجيف التي تنجذب لرائحة الجيف الانسانية الننتة ، ضحايا جشعكم ، انهضوا اذن ولاتقاتلوا اخوانكم المسيحيين بل قاتلوا اعداءكم الذين استولوا على مدينة القدس ، حاربوا تحت راية المسيح قائدكم الوحيد ، افتدوا انفسكم انتم المذنبين المقترفين احط انواع الآثام .....

يجب على هؤلاء الذين كانوا مرتزقة ، يقاتلون في سبيل الاثم

والعدوان ، أن يجندوا أنفسهم الان لفيل ثواب وأجر فيه تعويض مضاعف ، وبعد ماذا يمكن أن أقول أكثر من هذا ؟

أقول : سيقف الفقراء والتعساء اولا على طرف ، وسيقف الاغنياء حقا على آخر ، هناك وقف أعداء الرب ، وهنا وقف أعوانه

أوقفوا انفسكم وانتدبوها إلى الحرب المقدسة دونما تأخير ، وليقم المقاتلون منكم بتنظيم أعمالهم ، وجمع كل ما يحتاجونه للحملة ، وعندما ينقشع الشتاء ويحل الربيع عليهم أن ينطلقوا بقلوب عامرة بالايمان ، وليأخذوا الطريق تحت اشراف الرب وقيادته .»

ولم يبدع البابا أوربان الثاني هذه الدعوة بل ورثها عن سبقة من بابوات خاصة رجال القرن الحادي عشر للميلاد ، ففي هذا القرن كثر الطامحون للوصول إلى عرش البابوية في اللاتيران ، وكان ممن نجح في ذلك أفراد أسرة يهودية رومانية اسمها « البيرليونى » ، وقدمت هذه الأسرة أكثر من بابا كان آخرهم البابا أوربان الثانى ، وأوربان الثانى وإن لم يكن « بيرليونى » النسب ، إلا أنه كان خريج مدرسة هذه الاسرة ، وأشهر بابوات هذه الاسرة البابا غريغورى السابع ، فهو بالواقع من خطط لحملة صليبية تتجه نحو المشرق ، فهو قد عاصر معركة الزلاقة ، وتراسل مع ابن علناس صاحب قلعة بني حماد، وحرضه ضد يوسف بن تاشفين ، كما رأينا في الجزء المتقدم ، وكان البابا غريغورى قد دخل في صراع شديد مع الامبراطور الجرمانى هنري الرابع ، فأصدر هذا الامبراطور في ٢٤ كانون الثانى لعام ١٠٧٦ م قرارا بعزل البابا من منصبه وعين بدلا عنه بابا مكنه بقوة السلاح من دخول اللاتيران ، وعلى الرغم من جميع ما بذله البابا غريغورى السابع من جهود فإنه مات منفيا سنة ١٠٨٥ ، فاختار الكرادلة فكتور الثالث بابا خليفة له وكان عجوزا توفي سنة ١٠٨٧ م فجرى اختيار أوربان الثانى ، ولم يستطع أوربان الثانى دخول روما لوجود بابا امبراطورى فيها محتل لها اسمه كليمنت الثالث (٣)، لذلك عاش

هذا البابا متنقلا مابين ايطاليا وفرنسا ، ومن فرنسا اطلق الدعوة الى الحروب الصليبية ، ومن هذا الباب رأى بعضهم في دعوة اوربان الثاني في مجمع كليرمونت محاولة ذات عدة غايات :

أ- امتلاك قوة جماهيرية واقطاعية في فرنسا خاصة واستخدامها في الصراع ضد الامبراطورية ولتمكنه من العودة الى روما بابا معترفا به من قبل الجميع ومنتصرا بالوقت نفسه.

ب - في اندفاع اعداد هائلة من الاوربيين الغربيين نحو الأراضي البيزنطية فرصة لفرض هيمنة روما على جميع الكنائس ، او كما قيل إعادة توحيد الكنيستين الشرقية والغربية ، وطبعاً هذا لم يتحقق حتى بعد سيطرة الصليبيين على القسطنطينية فيما يسمى بالحملة الرابعة كما سنرى .

ج - تنفيذ غايات اعلان الحرب ضد المسلمين والقضاء على الاسلام وسكان الشام وتحويل هذه البلاد إلى وطن لاتيني فيما وراء البحار

وسلف التعرف إلى اوضاع بلاد الشام والوطن العربي في القرن الحادي عشر ولاحاجة لإعادة هنا ، كما أنني لا أجد ضرورة لعرض تفاصيل وقائع ما حدث بعد عقد مجمع كليرمونت ، فهذه التفاصيل وافية جدا في نصوصنا المذمورة على اختلاف أصولها ومشاربها ، والغاية مما نكتبه الان تقديم بعض المفاتيح التي تساعد على فهم النصوص ، ويكفي أن نتذكر الان ، أنه بعد وفاة السلطان ملكشاه تمزقت الدولة السلجوقية ، ولم تعد دولة مركزية لسلطانها سيطرة على جميع المعترفین بشرعيته ، وأسوأ من هذا كان وضع خلفاء بغداد ، ولما كانت شعوب الغز عبارة عن عشائر وقبائل بدوية ، كره افراها الوحدة ومجوها وأفوا الفرقة واحبوها ، وارتضوا بعدم الاستقرار ، لذلك استمرت الصراعات الداخلية والحروب .

وهكذا بعدما انساح التركمان في بلاد الشام استطاءوا خلال أكثر من ثلث قرن من الزمان تدمير بلاد الشام تدميرا مريعا قلما

عرفت له مثيلا في تاريخها المديد ، وعندما اشرف القرن الحادي عشر على النهاية كانت بلاد الشام في حالة من الانهك والضعف والتداعي الداخلي والخارجي لانظير له ، وكانت البلاد ممزقة سياسيا :

الحكام جلهم من التركمان الغرباء بالمولد والنشأة لارتباط لهم بحضارة بلاد الشام ولغتها وتقاليدها ومعتقدات أهلها ، هم هؤلاء الحكام السلطة والمزيد من الارباح الخاصة والمال فقط دونما رادع او اعتبار ، وكان من محصلات أعمالهم بالاضافة لما ذكر ، تحطيم قوة القبائل العربية في البلاد مع قوة أهل المدن والمنظمات الشعبية .

وفي نزوة حالة الدمار هذه والعنف والعذاب وصلت انطاكية في مشارف الشام حشود فرنجة أوربا ، قدرت اعدادها بما يفوق المليون مابين رجل وشيخ وطفل وامرأة ، وقيل بأن القوة المقاتلة لهذه الحشود كانت لاتقل عن مئة الف ما بين فارس وراجل وتابع .

وكان الهدف المعلن لهذه الحشود - كما راينا - الوصول الى القدس لقضاء واجب الحج ، وتخليص الاراضي المقدسة من المسلمين والعرب ، وتحويلها الى جزء من أوربا الكاثوليكية فيما وراء البحار.

ووصلت جموع الفرنجة الى انطاكية وأخذت في حصارها ، وكان الحصار شديدا امتد فترة طويلة ، اخفق خلالها حكام الشام والجزيرة من التركمان في توحيد جهودهم ، وجمع عساكرهم في سبيل صد الفرنجة وطردهم ، وكانت الفرص مناسبة ومساعدة ، واخيرا سقطت انطاكية بسبب خيانة أحد كبار ضباط عساكر يغي سغان ، حيث مكن الفرنجة من تسلق أسوار البرج الذي كان أمر الدفاع موكل إليه ، وعندما دخل الصليبيون انطاكية في ٣ حزيران ١٠٩٨ م نبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين ، وفر يغي سغان حاكمها وفي الطريق سقط عن فرسه فمات فزعا من هول الصدمة والمصيبة التي حلت به ، ولم يكن سقوط مدينة انطاكية يعني ضياع كل الفرص ، فقد بقيت قلعة المدينة في أيدي المسلمين ، واخيرا تجمعت قوة تركمانية من الشام والجزيرة

ووصلت الى أنطاكية ، وأخذت بحصار الفرنجة داخل المدينة، وقاد كربوقا صاحب الموصل الحصار ، وكان من الممكن ايقاع البلاء بالصليبيين لوقوعهم بين نارين، نار حامية القلعة ونار التركمان من خارج الاسوار ، لكن انانية قادة التركمان وطغيان كربوقا واستبداده برأيه جلب الاخفاق والهزيمة ووصف صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، الحالة أثناء الحصار بقوله : « أما الترك الموجودون داخل المدينة فلم يكفوا عن محاربتنا أثناء الليل وأطراف النهار ، ولم يكن يمنعنا منهم سوى دروعنا ، ولما رأى رجالنا أنهم لم يعودوا يحتملوا هذه المتاعب نظرا لأنه لم يعد يسمح بأكل الخبز لمن معه الخبز ، ولا يشرب الماء لمن معه الماء ، فقد بنوا بينهم وبين الترك حائطا من الجير والكلس ، وشيدوا حصنا جهزوه بالآلات المختلفة لضمان طمانينتنا ، كما أقام فريق من الأتراك في القلعة لمحاربتنا ، أما الفريق الآخر فقد عسكر في واد قريب من القلعة ... أما حامية القلعة فقد دأبت على مهاجمة رجالنا ليلا ونهارا ، تاركة إياهم ما بين جريح وقتيل بسهامها ، أما بقية الترك فقد أخذت في محاصرة المدينة من جميع نواحيها حصارا شديدا لم يجرؤ حياله أحد من جماعتنا على الخروج منها أو الدخول إليها الا ليلا أو خفئا ، وبذلك كنا نعاني من الحصار ونكابد الضيق على أيدي أولئك الأعداء الذين كانوا في العدد الكثيف» .

وفي نزوة المحنة هذه ادعى أحد الفرنجة واسمه بطرس أن القديس اندراوس قد تراءى له ، وقال له : « إنني الحواري اندراوس اسمع يا بني : عرج ... على كنيسة القديس بطرس - القسيان - وستجد بها حربة مخلصنا يسوع المسيح التي طعن بها حين رفع على خشبة الصليب » ، وبعد تردد باح بطرس بأمر رؤياه هذه لزعماء الفرنجة وأتباعهم ، وكان بطرس كما يقول ابن الأثير « داهية من الرجال ، فقال لهم : إن المسيح عليه السلام كان له حربة مدفونة بالقسيان في أنطاكية ، وهو بناء عظيم ، فان وجدتموها فإنكم تظفرون ، وأن لم تجدوها فالهلاك متحقق ، وكان قد دفن من قبل ذلك حربة في مكان فيه ، وعفا أثرها ، وأمرهم

بالصوم والتوبة ، ففعلوا ذلك ثلاثة ايام ، فلما كان اليوم الرابع  
أدخلهم الى الموضع جميعهم ومعهم عامتهم والصناع منهم ،  
وحفروا في جميع الاماكن فوجدوها كما ذكر ، فقال لهم : أبشروا  
بالظفر ، فخرجوا في اليوم الخامس من الباب متفرقين من خمسة  
وسنة ونحو ذلك ، فقال المسلمون لكربوقا ينبغي ان تقف على الباب  
فتقتل كل من يخرج ، فان أمرهم الآن وهم متفرقون سهل ، فقال:  
لا تفعلوا امهلوهم حتى يتكامل خروجهم فنقتلهم ، ولم يمكن من  
معاجلتهم ، فقتل قوم من المسلمين جماعة من الخارجين فجاء اليهم  
بنفسه ومنعهم ونهاهم ، فلما تكامل خروج الفرنج ولم يبق بانطاكية  
أحد منهم ضربوا مصافا عظيما فولى المسلمون منهزمين لما عاملهم  
به كربوقا أولا من الاستهانة لهم والاعراض عنهم ، وثانيا من  
منعهم قتل الفرنج ، وتمت الهزيمة بهم ولم يضرب أحد منهم  
بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم .

في رواية ابن الأثير ان الهزيمة قد تمت على المسلمين « ولم يضرب  
أحد منهم بسيف ، ولا طعن برمح ، ولا رمى بسهم » مبالغة وتجاوز  
للحقيقة ذلك ان صاحب أعمال الفرنجة ، وهو شاهد عيان ، يذكر  
خلاف ذلك ، فهو يقول : « بعد أن فرغ الجميع من صيامهم الذي دام  
ثلاثة ايام ، ونفضوا أيديهم مما تلاه من الاحتفالات التي أقاموها في  
شتى الكنائس ، أخذوا في الاعتراف بخطاياهم ، فلما انتهوا من  
ذلك كله تناولوا القربان الذي هو جسد المسيح ودمه ، ثم وزعوا  
الصدقات ، وأقاموا القداسات .

ثم شكلت ست فرق من المقاتلين داخل المدينة ، أما الفرقة الأولى  
التي تقدمت سواها فكان بها هيچ العظيم وبصحبته الفرندسيون  
وكونت فلاندرز .

وفي الثانية دوق غودفري ورجاله وفي الثالثة روبرت النرمندي مع  
فرسانه وكانت الفرقة الرابعة بقيادة أسقف بوي الذي حمل معه  
حربة المخلص ، وكان معه رجاله وأتباع ريموند الصنجيلي الذي  
تخلف لحراسة الحصن خوفا من هجوم الترك عليه ، ومنعا لهم من

النزول الى المدينة ، وكان في الفريق الخامس تنكريد - ابن  
المركيز - بصحبة رجاله ، وفي الكتيبة السادسة بوهيموند الفطن مع  
فرسانه

ولما تدثر اساقفتنا وقسسنا وكهنتنا ورهباننا بحلهم المقدسة  
خرجوا معنا حاملين الصليبان ، مجدين السيد ومبتهلين اليه ان  
ينفذنا ويقينا من كل شر ، بينما اعلى اخرون الباب رافعين  
الصليب المقدس في ايديهم ورسّموا علينا علامة الصليب  
وباركونا ، ولما تجهزنا وتدرعنا بالصليب خرجنا من ناحية الباب  
المقابل للمحمرة .

ولما رأى كربوقا ما عليه كتائب الفرنجة من الترتيب الرائع وهي  
خارجة واحدة إثر اخرى قال : دعوهم يخرجوا ، فلن يكونوا  
حينذاك خيرا مما لو كانوا في ايدينا الا انه ما كاد يرى جيوش  
الفرنجة اللجبة تغادر الابواب حتى استبد به الذعر ، وسرعان  
ما امر قائده الموكل بالحراسة العامة ان يعلن الارتداد اذا شاهد النار  
تتأجج في مقدمة الجيش ، اذا تكون الهزيمة حينئذ قد حاقت  
بالترك .

وفي الحال شرع كربوقا في الارتداد على مهل شطر  
الجبل ، ورجالنا في إثره بالخطى نفسها ، ثم انشطر الترك  
شطرين : اتجه احدهما ناحية البحر ، بينما اقام رجال الفريق  
الآخر في مكانهم مؤملين ان يحصرونا ، فلما شعر رجالنا بما يببته  
العدو لهم فعلوا مثله ، فسيروا كتيبة سابعة مؤلفة من قوات الدوق  
غودفري وكونت نرمندي ، والقوا قيادتها الى رينالد ، وبعثوها لصد  
الأتراك القادمين من جهة البحر ، فالتحم الترك برجالنا ، وقتلوا  
كثيرين منهم بنبالهم ، وتجهزت كتائب اخرى امتدت من النهر حتى  
الجبل شاغله مساحة ميلين .

شرعت تلك الكتائب في التقدم من الناحيتين واحدقت برجالنا  
تنضحهم برماحها وترميمهم بأقواسها ، ولما رأى الترك المقيمون على

جانب البحر انه لم تعد لهم قدرة على المقاومة اضرموا النار في الحشائش حتى يراها المقيمون في خيمهم فيلذوا بالفرار ، فلما تبين لهؤلاء الاشارة استولوا على كل ثمين وانطلقوا هاربين ، فتقدم رجالنا على مهل لمنازلة الفريق الاعظم من جيشهم وكان تقدمهم شطر معسكره ، وزرع الدوق غودفري وهيج العظيم وكونت فلاندرز الى ساحل النهر حيث وجدوا الكثير من جحافلهم ، فتدروا بعلمة الصليب وكروا عليهم كرة رجل واحد ، فلما رأت البقية ذلك طاردهم هي الأخرى فتعالى صياح الترك والفرس ، أما نحن فقد مجدنا الاله الحي الصادق ، وحملنا عليهم باسم يسوع المسيح والمذبح المقدس ، والتحمنا وأياهم في القتال ، وتغلبنا عليهم بمعونة الرب .

استولى الفرع على الترك فانثالوا هاربين ، ومضى رجالنا في آثارهم حتى خيامهم ، واثروا فرسان المسيح ان يقصوهم ، وراوا ان اقضاءهم أجدى من الاستيلاء على الغنيمة ، وظلوا في أعقابهم حتى جسر العاصي ... فحلى العدو ورائه خيمه وذهبه وفضته وكثيرا من المتاع والماشية والثيران والماعز والبغال والحمير والحنطة والنبذ والطحين ، وغير ذلك مما كان يلزمنا .

وسقطت عقب هذه الهزيمة قلعة انطاكية في ٢٨ تموز ١٠٩٨ م ، وأخذ الصليبيون يعدون أنفسهم لمتابعة الزحف جنوبا ، وكان قبل ان تسقط انطاكية ، وحتى قبل ان يصل الصليبيون اليها ان انفصلت منهم فئة بقيادة بلدوين أخو غودفري - الذي سيكون أول ملك لمملكة القسطنطينية - وتوجهت من مرعش شرقا ، فتمكنت من الاستيلاء على بعض مناطق الثغور الاسلامية البيزنطية ، وأخيرا وصلت الى الرها فاحتلتها ، واتخذت منها قاعدة لاحدى امارات الصليبيين في المشرق ، وكان من اسباب نجاح هذه الفئة ومن اسباب النجاح عند انطاكية كون الكثيرين من سكان تلك المناطق كانوا أما سريانا يشعرون بالغربة أو من أصل أرمني (٤) ، يضاف الى هذا ان

سيادة التركمان على المنطقة كانت سيادة سطحية ، مكروهة وليس لها قواعد متينة ، ثم إن دفاع التركمان وحربهم ضد الفرنجة كان على طريقة البدو وفق قاعدة الكر والفر ، ثم ان الأرض لم تكن « بعد » أرضا تركمانية ، والذي دفع التركمان للتصدي لجموع الفرنجة هو الدفاع عن ملكهم وسلطانهم ، وربما وجد شيء يسير من الشعور الديني ، إنما بلا ريب لم يكن من القوة والكفاية بمكان .

وزحفت معظم جموع الفرنجة جنوبا ، وذلك بعد ان جعلوا انطاكية مركزا لامارة صليبية ثانية في المشرق ، واستطاعوا اثناء زحفهم هذا ان ينتزعوا من دولة حلب الكثير من اراضيها وقراها وبلدانها خاصة في المنطقة الغربية ، فلقد استولوا على البارة ، واخذوا يجردون حلب من اراضيها واملاكها حتى وصلوا الى اسوار المدينة ، ثم اتوا على معرة النعمان ، ويحدثنا صاحب اعمال الفرنجة وهو شاهد عيان عن حصار المعرة فيذكر ان جيوش الصليبيين: « تجمعت أمام أسوارها في ٢٩ تشرين الثاني عام ١٠٩٨ ، وحاصرتها وحملت عليها حملة عنيفة من جميع نواحيها واستبسلاوا استبسلا عظيما شديدا مكنهم من تثبيت السلاطمة على الأسوار غير أن قوة « الكفار » كانت أشد فلم يستطع رجالنا أن يصيبوهم بأنى أذى.

لما رأى ساداتنا الاجدوى من ذلك العمل وانهم لايجنون ثمرة ما ، قام ريموند كونت صنجيل وشيخنا خشيبيبا بأسقا منيعة ، يدور على دوليب أربعة ، وجهزه بما يحتاج اليه ، فكان يوجد في الطابق الأعلى كثير من الفرسان مع افرار الصياد الذي كان أشد من يقرع الطبول ، ومن تحتهم الفرسان المدرعون الذين يدفعون الحصن الى قرب الأسوار ليلاصق أحد الأبراج ، فلما شاهد الكفار هذا العمل بادروا الى آلة أخذت تقذف الحصن بالحجارة الضخمة ، وكادوا ان يقتلوا جميع فرساننا ، كما أخذوا يرمون الحصن بالنار الاغريقية عساه ان يحترق ويتهدم ، الا ان الرب

القوي لم يشأ أن يحترق الحصن هذه المرة ، لأنه كان أعلى من كل أسوار المدينة .

أما فرساننا الموجودون بالطابق الأعلى - وفيهم وليم مونت بليه وكثيرون غيره - فقد مضوا يقذفون المدافعين عن السور بالأحجار الضخمة ، كما شرعوا يضربون بشدة على مجانيقهم ، فكان الرجل وفرسه يسقطان في داخل المدينة ويصاب بضربة قاتلة ، وبينما كان هؤلاء يتحاربون كان هناك آخرون يستعملون رماحا عقدوا بها الرايات ، واستطاعوا بواسطة رماحهم وشموصهم الحديدية تصيد الأعداء ، وظل القتال مستمرا حتى المساء .

كان يوجد خلف الحصن جماعة القسس والشمامسة في مسوحهم المقدسة ، وهم يصلون للرب ويبتهلون إليه أن يرفع المعرة عن شعبه ، وأن يعلي كلمة المسيحية ويلاشي الوثنية ، وكان هناك في ناحية أخرى فرساننا ، وهم في حرب دائمة مع العدو ، ينصبون السلالم على سور المدينة ، غير أن مقاومة ( الوثنيين ) كانت من الشدة بالدرجة التي أعاقت رجالنا عن أي تقدم ، ومع ذلك فقد كان جوتيه دي لاستور أول من اعتلى السور بواسطة السلم الذي سرعان ما تحطم تحت ثقل رفاقه الكثيرين ، إلا أنه كان قد تمكن من اعتلاء السور مع جماعة منهم ، كما وجد فريق غيرهم سلما آخر ، وسرعان ما ثبتوه على السور ، وبادر فارتقاه كثير من الفرسان والمشاة وتسلقوا الحائط ، غير أن المسلمين هاجموهم هجوما عنيفا على السور وعلى الأرض ، وأشرعوا نحوهم الأسنة ، وأخذوا يضربونهم عن قرب برماحهم ، فاستولى الذعر على كثير من رجالنا ، فالتقوا بأنفسهم من فوق السور .

وفي الوقت الذي كان فيه أولئك الرجال الشجعان واقفين على حافة السور يكابدون أهوال الهجوم ، كان الآخرون الذين عند سفح الحصن يعملون على نقب سور البلد ، فلما رأى المسلمون أن رجالنا قد نقبوا حائطهم استولى عليهم الرعب وفروا هاربين إلى داخل المدينة ، وقد تم ذلك كله يوم السبت ١١ كانون أول وقت صلاة

الاستار عند غروب الشمس ، وإذ ذاك أمر بوهيموند على لسان مترجمه - زعماء المسلمين بالالتجاء - هم وبنسأؤهم وأطفالهم ومتاعهم - الى قصر واقع جنوب الحصن ، وأخذ على نفسه عهدا أمنهم به على حياتهم .

بعدئذ دخل رجالنا جميعا الى المدينة ، واستحوذ كل منهم لنفسه على كل قيم ثمين مما وجدوه في المنازل والمخابيء ، فلما طلع الصباح أخذوا يقتلون كل من يعثرون عليه من أعدائهم رجلا كان أم امرأة ، حتى لم تعد ثم ناحية ما من المدينة خالية من جثث المسلمين ، وندر أن يجوب المرء شوارع البلده دون أن يطأ تلك الجثث ، وقبض بوهيموند على من أمرهم بالدخول الى القصر الذي عينه لهم وسلبهم كل ما كانوا يملكونه من الذهب والفضة وسواهما من الحلبي ، وقتل بعضهم وساق الباقين الى أنطاكية لبياعوا بها . بقي الفرنجة في هذه المدينة مدة شهر وأربعة أيام ، وفي أثناء ذلك مات (وليم) أسقف أورنج .

وكان بين رجالنا فريق لم يجد هناك ما يحتاجه ، وذلك لطول مكثه ولصعوبة التموين ، ولأنه لم يستطع أن يجد خارج المدينة شيئا يستولي عليه ، وإذ ذاك أخذ رجاله يبقرون بطون القتلى لما علموه من أن بعضهم كان قد ابتلع النقود ، ومضى غيرهم يقطعون لحومهم قطعاً قطعاً ويطهونها ليقتاتوا بها .

وبعد احتلال المعرة نشب خلاف بين أمراء الصليبيين ، فقد أراد بعضهم الاستقرار في المعرة لاقامة امارة جديدة ، وعارض أصحاب انطاكية الجدد ذلك ، حتى كانت الحرب تذبذب بين صفوف الفرزة ، وهنا ثارت جماهير الفقراء ( الطغور ) (٥) من الصليبيين ، واندفعت تقتل كل من بقي من المسلمين في المعرة ، ثم توجهت نحو أسوار المعرة وتحصيناتها فدمرتها كلياً ، وهكذا اضطر الصليبيون الى مغادرة المعرة والزحف جنوباً ، يقتلون ويحرقون ويدمرون حتى وصلوا الى القدس، وكانت تابعة للحكم الفاطمي في مصر ، فحاصروها حصاراً شديداً ، وقاومت

المدينة ، وانتظرت ورود النجدات اليها من القاهرة ، لكن عبثا كان هذا الأمل ، واثناء الحصار وصل الى يافا عدد من السفن الايطالية حاملة العتاد والأخشاب والأغذية للفرنجة ، وقام الصليبيون ببناء عدة أبراج حصار تمكنوا بوساطتها من الاستيلاء على القدس في ١٦ تموز ١٠٩٩ ، وترك هنا وصف ما حل بالقدس لصاحب كتاب أعمال الفرنجة ، وقد شارك بالأحداث فيها هو ذا يقول : « تقدم واحد من فرساننا واسمعه « ليتو » واعتلى سور المدينة ، وما كاد يرتقيه حتى هرب جميع المدافعين عنها من الأسوار الى داخلها ، فتعقبهم رجالنا وأخذوا في مطاردتهم معملين فيهم القتل والتذبيح حتى بلغوا هيكل سليمان حيث جرت مذبحة هائلة ، فكان رجالنا يخوضون حتى كعوبهم في دماء القتلى ... ولما ولج حجاجنا جدوا في قتل المسلمين ومطاردتهم حتى قبة عمر ، حيث تجمّعوا واستسلموا لرجالنا الذين عملوا فيهم أعظم القتل طيلة اليوم بأكملها ، حتى فاض المعبد كله بدمانهم ... وانطلق الصليبيون في جميع أنحاء المدينة يستولون على الذهب والفضة والجياد والبغال ، كما أخذوا في نهب البيوت المملئة بالثروات .

اشتد السرور برجالنا حتى بكوا من فرحتهم ، ثم سجدوا أمام قبر مخلصنا يسوع وقضوا واجباتهم الدينية إزاءه ، وفي صباح اليوم التالي تسلق رجالنا سطح الهيكل وهجموا على المسلمين رجالا ونساء ، واستلوا سيوفهم وراحوا يعملون فيهم القتل ... وصدر الأمر ... بطرح كافة موتى المسلمين خارج البلدة لشدة النتن المتصاعد من جيفهم ولأن المدينة كانت أن تكون بأجمعها مملوءة بجثثهم ، فقام المسلمون الذين قيضت لهم الحياة بسحب القتلى خارج بيت المقدس ، وطرحهم أمام الأبواب ، وتعالق أكوامهم حتى حازت البيوت ارتفاعا ، وما تاتي لأحد قط أن سمع أو رأى مذبحة كهذه المذبحة التي امت بالشعب ، المسلم .»

وصفت القدس للغزاة الجدد فأقاموا فيها ثالث دولهم في الشرق وأعظمها مكانة ، ثم أخذوا يوسعون رقعة أملاكهم في

فلسطين ، وبعد عدة سنوات احتلوا مدينة طرابلس واقاموا فيها دويلتهم الرابعة في الشام .

لقد نزلت الآن بالشام ضربة مروعة ، واصاب العرب خزي لم يعرفوا مثله منذ قيام الاسلام ، لكن هذا كله لم يعد الرشد الى حكام دويلات الشام التركمان فاستمروا في صراعاتهم الداخلية ، واحتدم الصراع من جديد بين دمشق وحلب ، واضطر الطرفان لمهادنة الصليبيين ليتفرغا لصراعاتهم الداخلية ، واخذ الناس في الشام يتعلمون مما حصل وبدأ التملل يتحول الى اعمال ناقدة ومعارضة لتصرفات الحكام ، واول ما انفجر الوضع في مدينة حلب .

وسلفت الاشارة الى الوضع السياسي في بلاد الشام في القرن الحادي عشر ، ونذكر هنا ثانية أنه عندما دخل الفرنجة هذه البلاد كانت أبرز دولها دولتان : واحدة في حلب والأخرى في دمشق ، وكان حاكما هاتين الدولتين أخوين ، هما : دقاق بن تددش ورضوان بن تددش ، وقد مثلا جيلا خاصا من اجيال الإسلاجقة ، فقد أوقفنا نفسيهما مع قواتهما للصراع الداخلي والحروب الأهلية ، واهتبل الفرنجة هذه الفرصة ، فوسعوا أملاكهم ، وجردوا حلبا من جميع أراضيها الشمالية والغربية ، ولم يبق لها بعد هذا البعض أراضيها الجنوبية والشرقية ، وقد استهدف الفرنجة التضييق على حلب واحتلالها للملء الثغرة ما بين انطاكية والرها ، ثم الاطباق على الشام كله .

وضاق الأمر بأهل حلب ، فتحركوا ، وأرادوا أول ما أرادوا التخلص من حكامهم الأجانب عنهم مصلحة وشعورا ومسؤولية ، وابتغوا إقامة حكم « وطني شعبي » يستطيع التصدي للفرنجة ، والقيام بأعمال التحرير ، واندلعت الشرارة الأولى من مدينة حلب حين قام مقدم أحداث حلب - الميليشيا المحلية - ورئيس المدينة بالثورة على رضوان بن تددش ، حاكم المدينة التركماني ، وكان هذا الثائر بعرف بالمجن الفوعي بركات بن فارس ، وكان في الأصل فلاحا من قرية الفوعة القرية من

حلب ، وكان شهما ذا كفاءات عالية ، وقد تمكن بسبب ذلك من تولي رئاسة مدينة حلب ، ومقدمية الأحداث فيها .

وبعدما أعلن ثورته أيده أهل حلب وساعده ، فسيطر على مدينة حلب وحصر رضوان بن تديش في القلعة ، وكاد أن يسقطه لولا أن استطاع رضوان شراء ضمائر بعض أثرياء المدينة ، فخذلوا الناس عن المجن ، وثبطوهم عن نصرته ، وحدث انشقاق بين افراد منظمة الأحداث ، وكان أساس هذا الانشقاق مذهبيا طائفيا ، وأدى هذا الى اخفاق الثورة والقضاء القبض على المجن الفوعي ، وأودع رضوان المجن السجن ، وهناك كما روى شاهد عيان : « عذبه عذابا شديدا بأنواع شتى ، وأراد بذلك أن يستصفي ماله ، فمما عذبه به انه أحمر الطست حتى صار كالنار ، ووضع على رأسه ، ونفخ في دبره بكبير الحداد ، وثقب كعابه ولما ضرب النجار المثقب على كعبه قطع الجلد واللحم ولم يدر المثقب ، فلطمه المجن وقال: ويحك لا تعرف ، احضر خشبة وضعها على الكعب ، فأحضر خشبة ووضعها على كعبه ، فدار المثقب ونزل ، وثقب الكعب .

فلما فرغ قيل له :كيف تجد طعم الحديد ؟ قال : قولوا للحديد : كيف يجد طعمي ، ولم يقر المجن مع هذا كله بدرهم واحد ، ولم يحصل للملك - رضوان - من ماله إلا ما أقر به غلام أو جارية ، وذلك شيء يسير ، ولما طال الأمر على رضوان أشير عليه بقتله ، فأخرج إلى ظاهر باب الفرج من نحو المشرق ، ومعه ابنان له شبابان ، مقتبلا الشباب ، فقتلا قبله وهو ينظر إليهما ولا يتكلم ، ثم قتل بعد ذلك ..

وأدت هذه الانتكاسة إلى رضوخ الشعب في حلب ، وسكوته على مضمض حتى عام ٥٠٤ هـ / ١١١٠ م ، فاندلعت الثورة ثانية في المدينة ، وأدرك الحلبيون أنهم لن يستطيعوا اسقاط رضوان ، لذلك شكلوا وفدا من بينهم غادر المدينة سرا وذهب إلى بغداد ، وفي بغداد لم تول سلطات الخلافة والسلطنة الوفد عنايتها ، ولم تصغ إلى مطالبه ، وأمام هذا التجاهل حرك رجال الوفد أهالي بغداد ، واستغاثوا بهم أيام الجمع ، كما منعوا الخطباء من القاء خطبهم

يوم الجمع وكسروا بعض المنابر، وهاج الناس في بغداد ، فآخاف ذلك السلطات فيها ، فقام السلطان محمد بن ملكشاه بتجهيز جيش كبير عهد بقيادته لمودود حاكم الموصل آنذ ، وتحركت هذه القوات نحو بلاد الشام ، وعندما وصلت إلى حلب ، أغلق رضوان بن تتش أبواب حلب في وجهها ، واعتقل زعماء شعب المدينة وأودعهم رهائن عنده في القلعة ، لنلا يفتح الشعب الابواب ، ويسلموها للقوات القادمة من المشرق ، « وبقيت أبواب حلب مغلقة سبع عشرة ليلة ، وأقام الناس ثلاث ليال لا يجدون ما يقتاتونه ، وكثر اللصوص ، وخاف الأعيان على أنفسهم ، وساء تدبير الملك رضوان ، فأطلق العوام السنتمهم بسببه وتعيبه ، وتحدثوا بذلك فيما بينهم ، فاشتد خوفه من الرعية أن يسلموا البلد وترك الركوب بينهم وبث الحرامية تتخطف من ينفرد من العساكر - أي عساكر مودود - وأمام هذا الحال المؤلم ، اضطر مودود إلى الرحيل نحو دمشق ، وأثناء زحفه اصطدم بقوة صليبية قرب شيزر فهزماها ، فرغ ذلك من معنوياته وشد من عزيمته ، وتابع سيره إلى دمشق حيث دخلها وتحالف مع طغتكين أتابكها ، والذي أصبح سيدها الفعلي بعد وفاة دقاق بن تتش (٣) ، لكن عندما بدأ هذا التحالف يؤتي بعض ثماره اغتيل مودود في مسجد دمشق في سنة ٥٠٧ هـ / ١١١٣ م ، وكان مفتاله من فئة الحشيشية الاسماعيلية ، ويبدو أنه كان لرضوان يد طولى في الاعداد لهذا الاغتيال وكذلك لطغتكين ، ومع ذلك فقد توفي رضوان بعد مودود بفترة وجيزة ، وأخذت الأحداث تتحرك في الشام الشمالي بسرعة جديدة .

فقد حل بساح حلب اضطراب سياسي شديد تحرك خلاله شعب المدينة بأكثر من ثورة أثمرت أخيرا ، وأدت إلى تجميد الحكام التركمان وقيام حكم « شعبي » يسير أمور الدفاع عن المدينة ، وبدأ يظهر إلى الوجود جيل عربي مؤمن جديد مع روح جديدة ، وفي هذا الوقت بالذات وبعد مضي حوالي ربع قرن على الغزو الصليبي ، كان تيار التوسع الصليبي في الشام قد وصل إلى أقصى مداه ، ومن ثم بدأ يتحول مده إلى جزر .

ومعلوم ان الصليبيين كانوا قد وصلوا إلى مشارف الشام جمعا واحدا لكن ما أن توغلوا فيه وفتحوا بعض أراضيه حتى حل بهم داؤه العضال ، فدب بين صفوفهم التمزق ، وانقسموا إلى عدة دويلات ، ( الرها ، أنطاكية - القدس - طرابلس ) وبما أن عددا كبيرا من رجالات الحملة الاولى كانوا قد استقروا في الشام ، فقد انجبوا هناك جيلا جديدا تمتع بصفات بلدية خاصة ، وحيث أن تدفق الفرنجة من اوربا على الشام لم ينقطع ، فقد غدا المجتمع الصليبي مؤلفا من مجموعتين متميزتين هما : مجموعة البلديين ، ومجموعة الوافدين ، وبالإضافة إلى هذا قامت بين صفوف الصليبيين تنظيمات كهنوتية غالبا ما كانت ذات صبغة عسكرية وذات مطامح سياسية ، ولقد تعقد هذا الوضع مع مرور الزمن ، وازدادت الفرقة عمقا ، والخلافات حدة ، كما زالت من بين صفوف الصليبيين الروح التي وجدت في الحملة الاولى وبخاصة بين صفوف الفقراء منهم .

لقد كانت الحادثة التي وصل المد الصليبي فيها الى مداه ثم اخذ يتحول الى جزر أمام أسوار مدينة حلب ، وكان ذلك سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤ م ، ففي هذه السنة حضر الصليبيون كل شيء للاستيلاء على مدينة حلب ، وكانت مدينة حلب في هذه الأونة تتبع رسميا لتمرناش بن ايلغازي أحد أفراد الأسرة الأرتقية التركمانية ، وقام الصليبيون بالاتصال مع دبيس بن صدقة صاحب الحلة في العراق وأمير قبيلة أسد ، فاتفقوا معه على أن يساعدهم في احتلال مدينة حلب مقابل تعيينه أميرا عليها شرط أن يسمح لبعض من قواتهم بالمرابطة فيها ، كما اتفقوا مع سالم بن مالك بن بدران العقيلي صاحب قلعة جعبر ، ومع ابراهيم بن رضوان بن تدش الذي كان أبوه أميرا لحلب عندما بدأ الغزو الصليبي ، فجمع الصليبيون قواتهم مع قوات حلفائهم ، وزحفوا على مدينة حلب ، واخذوا في حصارها ، واثناء الحصار عدل الاتفاق بين المحاصرين فاتفقوا من جديد على أن تكون حلب لابراهيم بن رضوان بن تدش « لأنها كانت لأبيه » .

ولم يكن الحاكم الرسمي لمدينة حلب مقيما بها ، بل كانت الامور في المدينة بأيدي شعبيها ، الذي شكل انئذ نوعا من انواع الجمهوريات للدفاع عن المدينة برئاسة قاضيها ابو الفضل بن الخشاب ، يعاونه مجلس يمثل زعماء المدينة وكبار العلماء .

وشدد المحاصرون تطويقهم لحلب ، وطال الحصار وامتد ، واخذ الصليبيون مع حلفائهم يزحفون على اسوار المدينة ، وقطعوا الشجر ، وخرّبوا مشاهد كثيرة ، وتبشوا قبور موتى المسلمين واخذوا توابعيتهم الى الخيم ، وجعلوها اوعية لطعامهم ، وسلبوا الاكفان ، وعمدوا الى ما كان من الموتى لم تنقطع اوصاله ، فربطوا في ارجلهم الحبال ، وسحبوهم مقابل المسلمين ، وجعلوا يقولون : هذا نبيكم محمد ، واخر يقول : هذا عليكم ، واخذوا مصحفا من بعض المشاهد بظاهر حلب ، وقالوا : يا مسلم ابصر كتابكم ، وثقبة الفرنجي ، وشده بخيطين وعمله ثفرا ( الثفر : السير الذي يجعل في مؤخر السرج ) لبرنونه ، واقاموا كلما ظفروا بمسلم قطعوا يديه ومذاكيره ودفعوه الى المسلمين .

ولم يؤثر هذا - على شدته - على معنويات الحلبيين ، فداوموا على الدفاع ، وازدادوا اصرارا على المقاومة ، « وبلغ بهم الضر الى حالة عظيمة حتى اكلوا الميتات والجيف ، ووقع فيهم المرض » ، ويحدثنا مؤرخ حلب الصاحب كمال الدين عمر بن العديم عن جده وكان من شهود العيان بأن الحلبيين « كانوا في وقت الحصار مطروحين من المرض في ازقة البلد ، فإذا زحف الفرنج ، وضرب بوق الفزع ، قاموا كأنما نشطوا من عقال ، وقاتلوا حتى يردوا الفرنج ، ثم يعود كل واحد من المرضى الى فراشه » .

و « لما اشتد الحصار على حلب ، وقلت الاقوات بها وضاق الامر » ، بالحلبيين اتفق رأيهم على تسيير وفد الى تمرتاش حاكم المدينة الرسمي ، وكان انذاك مقيما في مدينة ماردين مشغولا بمسائل خاصة ، وخرج الوفد ليلا من البلد ، وعلم الفرنج

بخبره ، وحاولوا اعتقاله فأخفقوا ، وبرغم هذا حاولوا ان يوهمو اهل المدينة انهم اعتقلوا رجالات الوفد ، لكن ذلك لم ينطل على الحلبيين ، وعرفوا بعد وقت نبا وصول وفدهم سالما الى ماردين .

وفي ماردين واجه الوفد مفاجأة كبرى غير متوقعة ، ويتحدث جد ابن العديم - وكان احد رجالات الوفد - واصفا ما حدث في ماردين فيقول : « لما وصلنا الى ماردين ، ودخلنا على حسام الدين تمرتاش ، ونكرنا له ما حل بأهل حلب ، وما هم فيه من ضيق الحصار والصبر ، وعدنا بالنصر ، وأنه يتوجه اليها ، ويرحل الفرنج عنها ، وانزلنا بمكان في ماردين ، وجعلنا نطالبه بما وعد وهو يدافعنا من يوم إلى يوم ، وكان آخر كلامه ان قال : خلوهم إذا أخذوا حلب ، عدت وأخذتها ، فقلنا في انفسنا : ما هذه إلا فرصة ، وقلنا له : لاتفعل ، ولاتسلم المسلمين إلى عدو الدين ، فقال : وكيف أقدر على لقائهم في هذا الوقت ؟ فقال له القاضي ابو غانم ( جد ابن العديم ) : « وايش هم حتى لاتقدر عليهم ونحن اهل البلد إذا وصلت إلينا نكفيك أمرهم » .

قال القاضي ابو الفضل - عم ابن العديم وراوي الخبر له: فكتبت كتابا من حلب إلى والدي ابو غانم أخبره بما حل بأهل حلب من الضر ، وأنه قد آل الأمر بهم إلى اكل القطاط والكلاب والميتة ، فوقع الكتاب في يد تمرتاش ، وشق عليه ، وغضب وقال : انظروا إلى جلد هؤلاء الفعلة الصنعة ، قد بلغ بهم الامر إلى هذه الحالة وهم يكتمون ذلك ويتجلدون ، ويفرونني ويقولون : إذا وصلت إلينا نكفك أمرهم .

قال القاضي ابو غانم : فأمر تمرتاش بأن يوكل علينا ، فوكل علينا من يحفظنا خوف الانفصال عنه إلى غيره ، فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل ، وأن نمضي إلى البرسقي - صاحب الموصل - فأعملنا الحيلة في الهرب إلى الموصل - وأن نمضي إلى البرسقي - صاحب الموصل - وذستصرخ به ، وبستنجه ، فتحدثنا مع من يهربنا ، وكان للمنزل الذي كنا فيه باب يصر صريرا

عظيما إذا فتح أو أغلق ، فأمرنا بعض أصحابنا أن يطرح في صائر الباب زيتا ويعالجه لئلا يفتح عند الحاجة ، ولا يعلم الجماعة الموكلون بنا إذا فتحناه بما نحن فيه ، وواعدنا الغلمان إذا جن الليل أن يسرجوا الدواب ويأتونا بها ، ونخرج خفية في جوف الليل ونركب ونمضي .

قال : وكان الزمان شتاء والثلج كثير على الارض ، قال القاضي أبو غانم : فلما نام الموكلون بنا جاء الغلمان بأسرهم إلا غلامي ياقوت ، وأخبر رفاقي أن قيد الدابة تعسر عليه فتحه ، وامتنع كسره ، فضاقت صدورنا لذلك ، وقلت لأصحابي : قوموا انتم وانتهزوا الفرصة ولا تنتظروني ، فقاموا وركبوا والدليل معهم يدلهم على الطريق ولم يعلم الموكلون بنا بشيء مما نحن فيه ، وبقيت وحدي من بينهم مفكرا لا يأخذني نوم حتى كان وقت السحر ، فجاءني ياقوت غلامي بالدابة ، وقال : الساعة انكسر القيد ، قال : فقممت وركبت لا اعرف الطريق ، ومشيت في الثلج اطلب الجهة التي اقصدها ، قال : فما طلع الصبح إلا وأنا وأصحابي الذين سبقوني في مكان واحد ، وقد ساروا من أول الليل ، وسرت من آخره ، وكان قد ضلوا عن الطريق ، فنزلنا جميعا وصلينا الصبح ، وركبنا وحدثنا دوابنا ، وأعلمنا السير حتى وصلنا الموصل .

وفي الموصل قابل هذا الوفد أق سنقر البرسقي حاكم المدينة ، واستطاع اثارته واقناعه بالذهاب على رأس قواته لانجاد حلب ، وعندما أشرفت عساكره على البلدة الباسلة ، رحلت قوات الصليبيين مذسحة ، وهكذا نجت حلب وبنجاتها نجت بلاد الشام مع المشرق العربي والإسلامي ، وقد علق في عصرنا هذا المؤرخ البريطاني الكبير توينبي على هذا الحادث بقوله : « لو سقطت حلب للصليبيين لصار الشرق لآتينيا » .

بوصول مد الاحتلال الصليبي سنة ٥١٨ هـ / ١١٢٤م الى نهايته انتهى طور الاحتلال الصليبي ، وبدأت حرب التحرير والاسترداد ، وانتقل المسلمون من حالة الدفاع الى حال الهجوم

وبدؤوا يخططون لأعمال التحرير ، وغالبا ما توقف الصليبيون عن أعمال الهجوم ، وبات شاغلهم الرئيسي الاحتفاظ بما احتلوه .

لقد مر طور حرب الاسترداد بأربع مراحل ، ارتبطت كل منها باسم مدينة من مدن العرب تحملت عبء المسؤولية العظمى لقيادة أعمال التحرير ، كما أن كل مرحلة من المراحل كان لها مزاياها وخصائصها ، وتعلقت الأمور كلها بشكل أساسي بأوضاع العرب والمسلمين من حيث اليقظة والوحدة وشخصيات القيادة ، وهذه المراحل هي : مرحلة الموصل ، مرحلة حلب ، مرحلة دمشق ، مرحلة القاهرة .

كانت مدينة الموصل - كما سلف بنا القول - أعظم مدن منطقة الجزيرة *mesopotamia* ، وفي التاريخ الإسلامي نجدتها في المراحل المبكرة منه دائما متورطة في مشاكل العراق السياسية وغير السياسية ، ولما كان لها دورها الفعال في أحداث بلاد الشام ، إنما يلاحظ منذ القرن العاشر بداية تحول للاشتراك في أحداث الشام ، إلا أن هذه المشاركة ظلت هامشية حتى أواخر القرن الحادي عشر ، وبالتحديد عندما ازداد تدفق الغز على الجزيرة والشام ، فلقد قدم الغز من اتجاه معاكس لاتجاه البداية العرب ، وقبل قدوم الغز وإقامة السلطنة السلجوقية رست مقاليد التغيير السياسي في بلاد الشام في أيدي رجال القبائل العرب ، وقد انتزع الغز هذه المقاليد منهم كما سبق الحديث عن هذا .

وكانت الموصل أول محطة للمهاجرين الغز نحو الشام ، وسبب هذا تحولا جذريا في تاريخ الموصل مع اقليم الجزيرة والشام ، فقد أخذ اتصال الموصل بالعراق يخف ، وغدت هذه المدينة بالتدريج جزءا من الشام ، وتورطت في مشاكله ، وأصبح الاستيلاء على الموصل الخطوة الأولى والاساسية نحو الاستيلاء على شمالي بلاد الشام ، وربما على الشام بأسره ، ويمكن أن نرى في تاريخ الدولة العقيلية ، ثم الدولة الأتابكية ما يكفي للتدليل على صحة هذا .

لقد أراد الصليبيون احتلال مدينة حلب لسد الثغرة بين الرها وأنطاكية ، ولعزل الشام عن المشرق ، بعد ما تم عزله الى حد بعيد عن مصر ، ليسهل بعد ذلك الاطباق عليه واحتلاله بشكل كامل ، لكن مدينة حلب نجت ودخلت في وحدة « طوعية شعبية » مع الموصل ، وهكذا توحد شمال بلاد الشام مع أعالي بلاد الرافدين تحت قيادة البرسقي ، ووجهت الآن طاقات المسلمين في الدولة الجديدة ضد الصليبيين ، وانتقل العمل ضد الفرنجة من مرحلة الدفاع السلبي الى مرحلة الهجوم الايجابي ، لكن لسوء حظ المسلمين ان البرسقي اغتيل من قبل الحشيشية الاسماعيلية بعد عامين من انقاز حلب ، وبدء حرب التحرير .

ولقد ادى اغتياله الى انتكاسة مروعة ، لكن مؤقتة ، ذلك ان الأمة كانت تعيش بداية عصر لليقظة لذلك اجتازت المحنة ، وتغلبت عليها ، لقد تأمرت قوى سياسية محترفة على سيادة الموصل ، وانجرفت السلطنة في تيار هذه المؤامرات مع دار الخلافة ، لكن شعب الموصل كان يعرف ما يريد عن ايمان وعزيمة ، وبعد عام من مصرع البرسقي توجه وفد يمثل أهل الموصل الى بغداد ، وقام هذا الوفد باختيار الضابط زنكي بن اق سنقر قسيم الدولة ، وتعاقدا معه على تولي مقاليد الأمور في دولة الموصل ضمن شروط معينة ، ولتأدية واجبات محددة ، وبعدها تم التعاقد معه اقنع الوفد سلطان بغداد بالموافقة على تعيين زنكي حاكما جديدا على الموصل واستبعاد سواه .

في عام ٥٢١ هـ / ١١٢٧ م تسلم عماد الدين الزنكي زمام الامور بالموصل ، وفي هذا يمكن القول بدأت بالفعل المرحلة الأولى من طور التحرير ، الامر الذي سنبحثه في الفصل المقبل ، وكنا قبل قليل قد اشرنا الى ما نجم عن قدوم الخزم من تبديل للجغرافيا السياسية والاستراتيجية لبلاد الجزيرة والشام ، وكذلك أعقب قدوم الفرنجة ونجاحهم في تأسيس دولهم تبديلات جغرافية سياسية واستراتيجية جديدة ، فقد عانت الأوضاع الى ما يشبه ما كانت عليه قبل الفتح العربي في القرن السابع ميلادي بحيث جاءت الان

المؤثرات الكبرى عبر اسية الصغرى وشدت البلاد نحو هذه المنطقة ولهذا عادت إلى مكان الصدارة من جديد مدن : انطاكية والرها والقدس وطرابلس ، لكن هذا لم يؤثر كثيرا على مكانة كل من دمشق وحلب ، وتدنت مكانة مدينة حمص وارتفع شأن مدينة حماه لانها فصلت بين دمشق وحلب فقط ، ولكن لانها تصدت لامارة طرابلس ولقوى الحشيشية التي استولت على عدد من القلاع الحصينة في جبال بهراء ( العلويين ) ولانها أيضا بقيت على صلوات وثيقة مع قبائل بادية الشام واهل المشرق .

ورسوخ تاسيس الفرنجة لدولة لهم في الرها مكانة الموصل واهلها لتقود المرحلة الاولى من طور التحرير ، كما أن اهل الشام انجذبوا نحو العراق وليس نحو مصر ، كما هو موروث وطبيعي لضعف الخلافة الفاطمية في مصر ، ولقدوم التركمان من الشرق ، ولانشغال حكام الموصل في دفع الخطر الذي تهددهم من الرها ، وسنجد انه بعدما تمكنت الموصل من الانتصار على الرها ، وبعدها حريرتها من حكم الفرنجة ، تراجع تأثير الموصل في الأحداث الشامية ، وعادت الانظار الشامية مجددا تتطلع نحو مصر .

وجاء التطلع إلى مصر عبر دمشق ، وتوحدت دمشق مع حلب في مرحلة التحرير الثانية التي تلت مرحلة الموصل ، وهذا ما سنبحثه في الفصل المقبل ، وحتى يسهل فهم الأمور مفيد أن نختم هذا الفصل بتقديم عرض موجز لتاريخ الدولة البورية وحكمها لبلاد الشام الجنوبية ، أو بالحري لحكمها لدمشق .

### البوريون أتابكة دمشق

سلفت الاشارة إلى التحاق دقاق بن تتش بدمشق ، وبعده هذا قدوم أتابكة طفتكين إلى دمشق حيث استقبل استقبالاً حافلاً في سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م وعلى الفور سلم دقاق إليه قيادة الجيش « واعتمد عليه في تدبير المملكة وسياسية البيضة (٧) » ، ووطد طفتكين سلطانه وتخلص من خصومه وكانت علاقاته بزوجته صفوة

الملك أم دقاق جيدة الى أبعد الحدود وهكذا « استقامت له الحال بدمشق ، وأحسن السيرة فيها ، وأجمل في تدبير أهلها ، وبالن في الذب عنها ، والمرامة دونها ، وسكنت نفس الملك شمس الملوك - دقاق - اليه ، واعتمد في التدبير عليه (٨) . .

وكان طفتكين طموحا واسع الحيلة لذلك عمد إلى التخلص من دقاق بدس السم له ، وهكذا توفي هذا الملك الفتى في رمضان ٤٩٧ هـ / حزيران ١١٠٤ م ، وكانت دولته حين مات تضم مع الشام الجنوبي حمص وحماه والرحبة (٣) . .

وبعد وفاة دقاق استدعى طفتكين ارتاش بن تتش من بعلبك وكان في الثانية عشرة من عمره وعينه ملكا جديدا لدمشق « وتقدم الى الأمراء المقدمين والأجناد بالطاعة لأمره والمناصحة في خدمته ، وأجلسه في دست المملكة (١٠) » وذلك بعد قرابة شهرين مضيا على وفاة دقاق .

ولم يطمئن ارتاش لسلامة نفسه في دمشق وخاف « من ظهير الدين أتابك ومن الخاتون صفوة الملك . وأوقعت أمه في نفسه الخوف منهما ، وأوهمته أنهما ربما عملا عليه فقتلاه (١١) » فهرب بعد أقل من شهرين مضيا على تمليكه واجتمع معه صاحب بصرى ، وقد عاثا فترة من الزمن في منطقة حوران ثم مضيا الى المملكة اللاتينية في القدس على أمل الحصول منها على جيش يستوليان به على دمشق ، لكنهما أخفقا ، « فحين يئسا من المعونة ، وخاب أملهما في الاجابة توجهوا إلى ناحية الرحبة في البيرية ، واستقام الأمر بعدهما لظهير الدين أتابك وتفرد بالأمر ، واستبد بالرأي (١٢) » وتخلص من بقايا أسرة تتش ورجالاتها ، فبعد وقت قصير من فرار ارتاش توفي آخر أفراد أسرة دقاق ، وهو تتش بن دقاق وكان طفلا صغيرا ، وبهذا يمكن اعتبار سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م سنة البداية الفعلية لتأسيس الدولة البورية في دمشق من قبل طفتكين ، وحكمت هذه الدولة الجزء الأكبر من بلاد الشام لمدة تقارب النصف قرن، وكان طفتكين في تاريخها هو

الشخصية الابرز والاطول حكما والاكثر استقرارا ، كما انه كان على رأس شخصيات عصره في المشرق العربي ، وكان على طغتكين أن يحصل على رضى السلطنة السلجوقية والخلافة العباسية مع الاعتراف به حتى يكسب حكمه سمة الشرعية ، كما توجب عليه ادارة الوضع في حلب والافادة من فوضى الحكم فيها ما أمكن ، وعمل بالوقت نفسه على أن تكون علاقته بالخلافة الفاطمية حسنة لدفع خطر الصليبيين وهكذا تعاون معهم في ذي الحجـة سنة ٤٩٨ هـ / ١١٠٥ م في القتال ضد الصليبيين في المنطقة ما بين يافا وعسقلان (١٣) .

وصدر الخطر الاعظم على حكم طغتكين عن الفرنجة خاصة المملكة اللاتينية في القدس ، وتصدى طغتكين لهذا الخطر وحقق بعض النجاحات ، إنما فيما بعد تهادنت السلطة البورية مع الصليبيين وظلت الهدنة قائمة - كما سنرى - طوال العصر البوري بشكل عام ، وكان الدافع الاساسي للتهادن رغبة حكام دمشق في دفع المخاطر على سلطانهم من اصحاب حلب والموصل ، فحين انعدمت هذه المخاطر اتخذ طغتكين موقف المهاجم للصليبيين .

ففي سنة ٤٩٩ هـ / ١١٠٦ م هاجم الصليبيين ومنعهم من بناء حصن العلعال في وادي الاردن وفي السنة التالية عسكر في سواد حوران ومنع الصليبيين من العيث في المنطقة ، وفي سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٨ م تعاون مع الاسطول المصري في الدفاع عن صيدا والتفريج عنها ، كما اخذ يعد العدة لمساعدة طرابلس وفي السنة التالية ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م حاول مجددا الدفاع عن طرابلس بتسلم عرقة التي شكلت خط الدفاع الاول عنها فاخفق وسقطت عرقة ثم سقطت طرابلس للصليبيين الذين اسسوا فيها دويلتهم الرابعة في المشرق (١٤) .

واثر هذا جرت مفاوضات بين طغتكين وبلد وين الاول ملك المملكة اللاتينية بالقدس وتم عقد معاهدة هدنة في سنة ٥٠٢ هـ / ١١٠٩ م اتفق فيها على ان يكون السواد

- حوران - وجبل عوف اثلاثا : للاتراك الثلث ، وللفرنج  
والفلاحين الثلثان (١٥) .

بيد ان هذه الهدنة لم تكن اتفاقا شاملا يقضي بايقاف جميع  
العمليات العسكرية بين الطرفين الدمشقي والصليبي ، فهذا لم يكن  
بالامر الممكن لأن كل دولة صليبية لابل كل اقطاعية كان لها  
مصالحها وسياساتها الخاصة ، وهكذا راينا من قبل طغتكين  
يحاول تقديم المساعدة لحلب ضد انطاكية لابل اوضح من هذا راينا  
يشترك مع مودود في القتال ضد قوات مملكة القدس ، وايضا راينا  
عملية اغتيال مودود في المسجد الجامع في دمشق (١٦) .

استطاع طغتكين الحفاظ على حكمه حتى سنة وفاته  
في ٥٢٢ هـ / ١١٢٨ م ولم يكن هذا بالامر الهين خاصة وانه  
تعرض لضغوط شديدة من المشرق ، فزار بغداد  
سنة ٥٠٩ هـ / ١١١٥ م وقدم هدايا ثمينة لدار الخلافة ولدار  
السلطنة فحصل على الرضى وكتب له منشور سلطاني بولاية الشام  
حربا وخراجا ، واطلاق يده في ارتفاعه على ايشارة واختياره (١٧)  
هذا ويلاحظ ان طغتكين سمح في السنني الاخيرة لحكمه لاتباع  
الدعوة الاسماعيلية الجديدة من الحشيشية بالتمركز في دمشق وقد  
نالوا مساندة وزيرها ابو علي طاهر بن سعد المزدقاني وحصلوا  
بوساطته على قلعة بانياس التي كانت مركز الدفاع الاول عن دمشق  
ضد المملكة اللاتينية بالقدس .

يضاف الى هذا ان سنة وفاة طغتكين كانت السنة التي تسلم  
فيها عماد الدين زنكي حكم الموصل الامر الذي كان له ابعاد الاثار  
على دمشق وحكامها البوريين (١٨) .

كان طغتكين قد اوصى بالملك من بعده لابنه بوري ، وهو الذي  
نالت الدولة اسمها منه ، وقد افتتح بوري عهده بمذبحة كبيرة اوقعها  
باتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة ، وعندما عرف اسماعيلية  
بانياس بما حدث في دمشق تخلوا عن بانياس لصالح الصليبيين

الذين تشجعوا كثيرا فحشدوا قواتهم وزحفوا ضد دمشق وحاصروها في محاولة الاستيلاء عليها ، لكن هذه المحاولة اخفقت ، غير ان دولة بوري مالبت ان تعرضت لمخاطر جديدة حيث انتزع عماد الدين زنكي منها مدينة حماه، لكن استطاع بوري بعد وقت قصير استرداد حماة، وفيما هو في ذروة نشاطه تعرض لمحاولة اغتيال نفذها اتباع الدعوة الاسماعيلية الجديدة وقد اصيب بوري في سنة ٥٢٥ هـ / ١١٣١ م بجراح بليغة عاش بعدها فترة قصيرة حيث توفي في سنة ٥٢٦ هـ / ١١٣٢ م (١٩) .

كان بوري قد اوصى قبل وفاته بالملك من بعده لابنه شمس الملوك اسماعيل ، وعهد ان تبقى بعلبك واعمالها لولده محمد ، وفي البداية نشب نزاع بين اسماعيل ومحمد حسم لصالح اسماعيل ، واثرت فقرغه من امر بعلبك هاجم بلدة بانياس فاستردها بهجوم عاصف عام ٥٢٧ هـ / ١١٣٣ م ، كما استطاع بعد هذا اعادة سلطانه على مدينة حماه ، غير انه ما لبث ان تخبط في ادارة اموره الداخلية وعندما شعر بعجزه راسل عماد الدين زنكي في سنة ٥٢٩ هـ / ١١٣٥ م يطلب منه الاسراع الى دمشق ليعلمها له وإلا فانه سيسلمها الى الصليبيين ، وعندما علمت امه بذلك « امرت غلمانها بقتله ، وترك الامهال ، غير راحمة له ، ولا متألمة لفقده » (٢٠) .

وعينت الخاتون صفوة الملك ابنها محمود حاكما جديدا لدمشق ، وكان على هذا الحاكم دفع زنكي عن دمشق ، ذلك ان زنكي قدم الى دمشق ليعلمها من اسماعيل بن بوري، وعندما علم بمصرعه قام بمحاصرة المدينة ، وشدد عليها الخناق ، واثناء ذلك تلقى رسالة من الخليفة العباسي المسترشد بالله ( ٥١٢ - ٥٢٩ هـ / ١١١٨ - ١١٣٥ م ) يأمره برفع الحصار عن دمشق والقدوم مع قواته الى بغداد ، فنفذ هذا الامر ورفع الحصار عن المدينة (٢١) .

وعاود زنكي اعماله التوسعية على حساب الدولة البوزية فحاول

احتلال حمص فأخفق، غير انه نجح بالاستيلاء على بعلبك سنة ٥٣٣هـ/١١٣٩ م حيث عهد بالحكم فيها الى نجم الدين ايوب والد صلاح الدين الأيوبي، ثم استولى على بانياس (٢٢) .

وبعد هذا انتقل عماد الدين من الحرب الى الدبلوماسية ، فعقد مع البوريين زواجا سياسيا حيث تزوج هو من الخاتون صفوة الملك المعروفة باسم زمرد أم شهاب الدين محمود ، وفي الوقت نفسه تزوج محمود من ابنة زنكي ، وتنازل له عن حكم مدينة حمص ، غير أنه مـالـبـث شـهـاب الدين محمد—ود أن اغتيل سنة ٥٣٣ هـ - ١١٣٨ م فبايع الأمراء جمال الدين محمد بن بوري ، الذي فوض أمور دولته الى معين الدين أنر (٢٣) .

أصبح أنر الآن الحاكم الفعلي للدولة البورية ، وقد برهن أنه من أبرع السياسة وأكثرهم قدرة ، فقد استطاع الحفاظ على استقلال دمشق بوساطة توازن حذر بين عماد الدين زنكي والمملكة اللاتينية بالقدس ، فقد كان يستعين بالصلبيين ضد عماد الدين ، وبعماد الدين أو خلفائه ضد الصليبيين .

وكان عندما بلغ صفوة الملك زمرد خبر مصرع ابنها في دمشق حرضت زوجها عماد الدين على الثأر ، فجاء معه قواته وحاصر دمشق وضيق الخناق عليها سنة ٥٣٤ هـ - ١١٣٩ م ، وأثناء الحصار مرض محمد بن بوري مرضا شديدا أودى بحياته ، وعندما عرف عماد الدين بهذا الحدث ازداد طمعه بالاستيلاء على دمشق ، لكن أنر استطاع ضبط الأمور وجلب أبق بن محمد وعينه حاكما جديدا ، إنما بشكل اسمي ، وراسل معين الفرنجة وعقد معهم اتفاقا يدفع لهم بموجبه مبلغا من المال ويسلمهم بانياس إن هم ساعدوه على دفع عماد الدين زنكي ، وبالفعل تحركت قوات الفرنجة نحو دمشق ، مما أرغم عماد الدين على الانسحاب ، ووفى إثر هذا أنر بعهوده ، فحاصر بانياس حتى تسلمها ثم سلمها الى الفرنجة (٢٤) .

ولم يحرص الفرنجة على سلامة دمشق وحكامها حرص انر عليهم ، فهم أرادوا احتلال دمشق اذا أمكنتهم الفرصة ، واذا لم تمكنهم دفعوا غيرهم عنها حتى تحين الفرصة ، فقد خشي الفرنجة الى أبعد الحدود من وحدة أجزاء بلاد الشام ، وهذا واضح تمام الوضوح فيما كتبه وليم الصوري في الأجزاء الأخيرة من كتابه ، فهو كان شاهد عيان للأحداث شغل مناصب عالية جدا في المملكة اللاتينية في القدس .

وهكذا نجد أنه بعدما استحوذ الفرنجة على بانياس خططوا للاستيلاء على قلعتي بصرى وصلخد وبذلك كان يتسنى لهم الاطباق على دمشق خاصة عندما نتذكر امتلاكهم للأجزاء الكبرى من الساحل الشامي وعدة قلاع قريبة من منطقة البقاع ثم ان بعلمك كانت ملكا لزنكي ، وهكذا نجد في سنة ٥٤١ هـ / ١١٤٧ م قيام ملك القدس بالزحف نحو بصرى على رأس قوة كبيرة جدا ، وكان يأمل في تسلم حصني بصرى ثم صلخد ، وذلك بناء على اتفاق عقده مع التونتاش حاكم هاتين القلعتين إثر زيارة قام بها الى القدس ، ولاقى الجيش الصليبي مقاومة عنيفة اثناء زحفه في اراضي حوران من سكان الأرياف والمدن والقبائل العربية ، وتم الزحف في الصيف ، وكان العرب قد غوروا الآبار ، وهكذا عطش الفرنجة عطشا شديدا ، زاد من قسوته الهجمات الصاعقة التي كان يقوم بها المقاومون العرب ، وعندما وصل الجيش الصليبي الى بصرى ، وكان معه الحاكم الخائن التونتاش فوجي، بقيام زوجة هذا الخائن بإغلاق أبواب القلعة والعزم على الدفاع وعدم السير في طريق الخيانة الذي سلكه ، زد على هذا علم الفرنجة ان انر معسكر مع قواته في صلخد بعد تسلمها وأن نجدات كبيرة قادمة من حلب يقودها نور الدين محمود بن زنكي .

وكان زنكي قد اغتيل قبيل قرابة السنة وتسلم الحكم في حلب ابنه نور الدين ، وعقد نور الدين معاهدات مع انر وتزوج ابنته ، وبناء على معطيات الوضع الجديد قرر الفرنجة التراجع ، وكان طريق

الانسحاب محفوفا بالمخاطر ، وكاد الجيش الصليبي يفنى عن بكرة ابيه نتيجة لهجمات رجال المقاومة العرب ، لولا تدخل انر فقد «جعل معين الدين يكف المسلمين عنهم ، ويصدهم عن قصدهم والتتبع لهم في انهزامهم» (٢٥) .

لقد انقذ انر الجيش الصليبي واجل تدميره مدة اربعين سنة ، عندما دمره صلاح الدين عند قرني حطين ، ومع هذا قابل الصليبيون صنيع هذا الحاكم الذي اثر ملكه العاجل على قضية الامة ، بأن قرروا بعد عامين الاستيلاء على دمشق .

ومن المعروف ان عماد الدين زنكي كان قد حرر مدينة الرها في سنة ٥٣٩ هـ - ١١٤٤ م وازال دولتها الصليبية من الوجود الامر الذي اثار مايعرف باسم الحملة الصليبية الثانية وشارك في هذه الحملة اعداد هائلة من الاوربيين وقادها إثنان من اكبر حكام اوربا هما فراانسوا السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث امبراطور المانيا ، وبعد جهود مضنية ورحلة طويلة عبر اوربا الشرقية واسية الصغرى وصل الناجون من عناصر الحملة الى القدس ، وفي عكا عقد مؤتمر واسع لزعماء الفرنجة تصدره ملك القدس وملك فرنسا والملك الالماني ، واتفق الثلاثة على الزحف الى دمشق لاحتلالها .

وفي دمشق قام معين الدين انر بتنظيم الدفاع عن المدينة ، واستفاد بنور الدين محمود بن زنكي صاحب حلب وبأخيه سيف الدين صاحب الموصل وبالقوى الموجودة في البقاع ومنطقة بعلبك فهب الجميع لنجدة دمشق ، وصرف الفرنجة « اعنتهم الى ناحية دمشق في حشدتهم وحديدهم في الخلق الكثير على مايقال ، تقدير الخمسين الف من الخيل والرجل ، ومعهم من السواد والجمال والابقار ماكثروا به العدد الكثير ، ودنوا من البلد ... فقصدوا ناحية المزة فخيّموا عليها لقربها من الماء ، وزحفوا اليه بخيلهم ورجلهم ، ووقف المسلمون بازانهم في يوم السبت السادس من شهر ربيع الاول سنة ثلاث واربعين» (٢٦) ( ٢٦ تموز ١١٤٨ م ) .

وذنب قتال عنيف بين الفرنجة والمدافعين عن دمشق ، واشتد قرب فرع نهر يزيد عند منطقة خانق الربوة ، وإثر هذا انتشر الصليبيون داخل البساتين الكثيفة فأكلوا ثمار المشمش قبل نضوجها وتعاضمت المقاومة داخل البساتين، وعلم الصليبيون بوصول نور الدين مع قواته الى منطقة حوران وبتدفق النجدات من منطقة بعلبك ، وخشية ان يطوقوا داخل البساتين ، قرر الصليبيون التحول بمعسكرهم نحو المنطقة الواقعة ما بين باب الصغير وباب شرقي ، املين بالأى يحاصروا في تلك المنطقة وبأن يلقوا بعض المساعدة من الداخل لأن معظم السكان هناك كانوا يدينون بالمسيحية ، ومجددا خاب فآل الفرنجة ، فعرب دمشق على اختلاف دياناتهم نظروا اليهم نظرة واحدة ، واشتدت المقاومة لذلك اضطر الصليبيون الى رفع الحصار عن دمشق بعد عدة ايام والرحيل « مجفلين والهرب مخزولين مفلولين » (٣٧) .

اظهر حصار دمشق مدى ضعف الدولة البورية وان نور الدين محمود هو القائد المؤهل للجهاد ضد الصليبيين وحافظ نور الدين على التعاون مع معين الدين أنر حتى وفاته سنة ٥٤٤ هـ / ١١٤٩ م (٣٨) ، وبعد هذا عزم على دخول دمشق وازالة حكم الأسرة البورية منها ، وحاول أكثر من مرة احتلال المدينة فأخفق غير أن شعبيته ارتفعت فيها ، ولهذا اضطر حاكمها مجير الدين أبى لزيارة نور الدين في حلب سنة ٥٤٦ هـ / ١١٥١ م حيث قدم له فروض الطاعة فرده نور الدين الى دمشق ليحكمها نيابة عنه (٣٩) ومع الايام تصاعدت مكانه نور الدين وازدادت مكانة حكام دمشق هبوطا حتى محرم مطلع عام ٤٤٩ هـ / آذار ١٠٥٧ م ، آنذاك وصل نور الدين مع قواته الى اطراف دمشق بعدما أخضعها لحصار اقتصادي ، وطالب نور الدين بتسليمه دمشق فرفض حاكمها مجير الدين وحاول مقاومته ودفعه بالقوة ، لكن قواته كانت متخاذلة ، وهكذا تمكن عدد من جند نور الدين من تسلق سور المدينة حيث نصبوا علم نور الدين « وصباحوا : نور الدين يامنصور ، وامتنع الأجناد والرعية من الممانعة لماهم عليه من المحبة

لنور الدين ، وعدله وحسن نكره ، وبادر بعض قطاع الخشب بفأسه الى الباب الشرقي فكسر اغلاقه ، وفتح فدخل منه العسكر على رعب ، وسعوا في الطرقات ولم يقف أحد بين أيديهم ، وفتح باب توما أيضا ودخل الناس منه ، ثم دخل نور الدين وخواصه ، وسر كافة الناس ومن الأجناد والعسكرية» (٣٠) .

كان دخول نور الدين الى دمشق الحدث الاعظم في تاريخ بلاد الشام منذ قيام الحروب الصليبية فقد تم الآن توحيد بلاد الشام ، وكانت هذه الوحدة الانطلاقة لوحدة عربية اوسع وأهم ، وقال وليم الصوري معقبا على دخول نور الدين الى دمشق ومعبرا بالوقت نفسه عما خالج بسادة مملكة القديس اللاتينية : « وكان هذا التغيير مشؤوما بلا جدال بالنسبة لمصالح المملكة ، فقد برز خصم مرعب بدلا من رجل بلا سلطة جعله ضعفه غير مؤذ للمسلمين ، وقد استمر يدفع اليهم جزية سنوية حتى هذا الوقت لأنه كما قيل : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وتبعا لكلمات مخلصنا تميل ممالك كثيرة حين تتحد لكسب القوة من بعضها وتظهر بقوة أكبر ضد عدو مشترك» (٣١) .

وتحول نور الدين الآن من حلب الى دمشق ، وبهذا تحولت مدينة دمشق عن الموقف السلبي تجاه الصليبيين الى وضع ايجابي تقود به حرب الاسترداد بشكل حاسم وهذا ما سنتناوله بالبحث في الفصل المقبل .